

ما هي الأبستمولوجيا

تمهيد:

تقتضي الإجابة على هذا السؤال المرور أولاً بالتعريف بمصطلح الأبستمولوجيا هذا المصطلح المركب ثم ثانياً التعرف على علاقة الأبستمولوجيا بغيرها من فروع المعرفة الأخرى أو على الأقل ببعض منها نظراً لذلك الترابط أو التداخل بينها من مثل: نظرية المعرفة، فلسفة العلوم، علم المناهج... الخ

1-تعريف الأبستمولوجيا:

مصطلح "أبستمولوجيا" "Epistemologie" في اللغة الفرنسية هو مصطلح مركب من الكلمة اليونانية "episteme" والتي تعني "العلم"، أو المعرفة العلمية"، والمقطع "logie" الذي يعني في أصله اليوناني "logos" أي النظرية، أو "الدراسة النقدية". ومنه فإن لفظ "بستمولوجيا" يعني انطلاقاً من أصله الاشتقاقي "نظرية العلم" أو نظرية المعرفة العلمية".

هذا ويعرف "لاند" الأبستمولوجيا إذ يقول: "تدل الكلمة على فلسفة العلوم، لكن بمعنى أدق، فهي ليست حقاً دراسة المناهج العلمية، التي هي موضوع الطرائقية وتنتمي إلى المنطلق، كما أنها ليست توليفاً أو إرهاباً ظنياً بالقوانين العلمية (على منوال المذهب الوضعي والنشوي). جوهرها المعلوماتية هي الدرس النقدي لمبادئ مختلف العلوم وفرضياتها ونتائجها، الرامي إلى تحديد أصلها المنطقي قيمتها ومداهما الموضوعي".

ما نفهمه من التعريف السابق أن "لاند" في تعريفه للأبستمولوجيا، لم يطابق بينها وبين مفهوم فلسفة العلوم، في قوله بمعنى أدق. ذلك أن الأبستمولوجيا إذ تهتم بالعلوم، فهي تهتم بها من حيث القيام بالدراسة النقدية لمبادئ هذه العلوم، فرضياتها، ونتائجها، وذلك بغية التحقق من أصلها المنطقي، ومن قيمتها، ومن مدى موضوعية هذه العلوم. لا بل ويؤكد "لاند" أيضاً على ضرورة التمييز بينها وبين نظرية المعرفة، وإن كانت مدخلا لها، ذلك أن الأبستمولوجيا تمتاز عن نظرية المعرفة، بكونها تدرس المعرفة بالتفصيل، وبشكل بعدي في مختلف العلوم، والأغراض، أكثر مما تدرسها على صعيد وحدة الفكر. وأن كانت في الواقع عمل ملازم لها.

وفي عبارة أخرى فإن الأبستمولوجيا، تختلف عن فلسفة العلوم، لكونها لا تدرس مناهج العلوم، وهناك علم قائم بذاته لمثل هذه الدراسة، ألا وهو علم المناهج أو المنهجية، -الميتورولوجيا-، الذي يعده "لاند" جزءاً من المنطق، مثلما تختلف عن نظرية المعرفة، لأنها الدراسة النقدية البعدية لمبادئ وفرضيات ونتائج مختلف العلوم، الهادفة إلى بيان أصلها المنطقي، لا النفسي، وقيمتها الموضوعية حتى وإن كان لا يمكن الاستغناء في هذه الدراسة النقدية البعدية، عن دراسة مناهج العلوم، نظراً للحاجة القائمة قبل القيام بالنقد، إلى معرفة صيغة مناهج العلوم التي ستدرسها دراسة نقدية.

وفصل القول هنا، هو وجود تمايز ما بين الدراسات الأبستمولوجية، والدراسات الميتودولوجية، بل وحتى الدراسات المنطقية، غير أن هذا التمايز لا يعني من جهة أولى الاستقلال التام، كما أنه لا يؤدي إلى إرجاع

الابستمولوجيا إلى أي من هذه الميادين، أو بصيغة جدلية إرجاع أي من هذه الميادين إلى الابستمولوجيا، ثم ومن جهة ثانية ضرورة التمييز أيضا وفق تعريف "لالاند" بين الابستمولوجيا والفلسفة الوضعية، التي قال بها "اوغست كونت" والتي يقال عنها بأنها تركيب واستيقاق للقوانين العلمية. وإن كان الكثير من الفلاسفة المعاصرين يعتقدون بأنه مفهوم الفلسفة الوضعية يلتقي مع الابستمولوجيا في كونها عملا تابعا للعمل العلمي، بل إن الفلسفة الوضعية لا تعني من وجهة "كونت" سوى اختصاصا علميا جديدا، يضاف لتلك الاختصاصات التي تقتضيها الحالة الوضعية* وفي هذه يتميز موقف الفيلسوف الوضعي، مثلما موقف الابستمولوجي عن موقف الفيلسوف التقليدي.

وهو ذات المعنى أو الفهم تقريبا الذي ذهب إليه "جميل صليبا" في كتابه: "معجم الفلسفة"، الجزء الأول عندما عرف الابستمولوجيا في قوله: "أعني دراسة مبادئ العلوم، وفرضياتها، ونتائجها دراسة انتقادية توصل إلى إبراز أصلها المنطقي، وقيمتها الموضوعية. وعليه فالأبستمولوجيا تختلف إذن عن دراسة طرق العلوم من جهة، وعن دراسة تركيب القوانين العلمية من جهة ثانية. فالدراسة الأولى - دراسة طرق العلوم - تعد قسم من المنطق التطبيقي، وأما الثانية - دراسة تركيب القوانين العلمية - فتعتبر قسم من الفلسفة الوضعية. ويضيف على ذلك بأنه يفرق أيضا بين الابستمولوجيا ونظرية المعرفة "Théorie de la Connaissance".

وإذا كانت "الابستمولوجيا" وفق ما ذهب إليه مدخلا ضروريا للثانية، أو لنظرية المعرفة، وذلك لأن الابستمولوجيا لا تبحث في المعرفة من جهة ما هي مبنية على وحدة الفكر، مثلما هو الأمر في نظرية المعرفة، فهي تبحث في المعرفة من جهة ما هي معرفة بعدية مفصلة على أبعاد العلوم، وأبعاد موضوعاتها، هذا حتى وإن كان اصطلاح ابستمولوجيا عند الانجليز مرادفا لنظرية المعرفة.

تجدد الإشارة هنا إلى أن لفظ "ابستمولوجيا" لم يكن معروفا، ولا شائعا، إلى غاية مطلع القرن العشرين (ق 20)، عندما ورد لأول مرة في ملحق معجم لاروس الموضح عام 1906، فقد خلت منه القواميس والمعاجم كلية قبل هذا التاريخ. أما أول من استخدم لفظ "ابستمولوجيا" فيما يبدو فكان "ج. ف. فيرييه" J.F.Ferrier في كتابه Institutes of Metaphysics الصادر عام 1854 أين ميز بين فرعين من الفلسفة هما: الابستمولوجيا، والأنطولوجيا*.

وجملة القول إذن هو أن "الابستمولوجيا" عبارة عن دراسة نقدية موضوعها المعرفة العلمية، من حيث المبادئ التي تركز عليها، والفرضيات التي تنطلق منها، والنتائج المنطقية لهذه الفرضيات والمبادئ والنتائج من ناحية، وقيمتها من ناحية أخرى.

هذا مع وجوب التذكير هنا بأن الفلاسفة، أو الكتاب الفرنسيون المعاصرون، يتخلفون عن نظرائهم الانجليز، في تصورهم لمدلول مصطلح "الأبستمولوجيا". فإذا كان الفلاسفة أو الكتاب الفرنسيون يرون مثلاً بأن موضوع الأبستمولوجيا هو "نقد المعرفة العلمية" من تحليل وتدقيق لمناهج العلمية والتصورات والمصادر الأساسية التي ينطلق منها العلماء إلى بناء قوانينهم وتصوراتهم وتصنيفهم للعلوم، مع البحث في طبيعة البحث فيها، وطبيعة قضاياها، فإن نظرائهم الانجليز من فلاسفة العلوم، وليس في باب الأبستمولوجيا على غرار: مناقشة موقف الشك المطلق في المعرفة، إمكان المعرفة الموضوعية أو استحالتها، مصادر المعرفة، وحدودها، زيادة على مساءلة طبيعة المعرفة التجريبية ومدى إمكانية وجود معرفة قبلية غير تجريبية، إلى جانب موضوع اليقين والاحتمال في المعرفة، ثم طبيعة معرفة الماضي، وما إلى ذلك من الموضوعات الأخرى ذات الصلة.

إن تتبع التعريفات التي أعطيت لمفهوم "الأبستمولوجيا" على تعددها، بما فيها تعريف "لالاند" وبالرغم من وضوحه النسبي، تدفع إلى مناقشة موضوع علاقة الأبستمولوجيا بغيرها من فروع المعرفة الأخرى مثل الفلسفة الوضعية، نظرية المعرفة، فلسفة العلوم، علم المناهج البحث، وهو ما سنأتي إليه لاحقاً. إلا أنه ومع ذلك يمكننا لقول بناء التعريفات المقدمة لمفهوم الأبستمولوجيا بأنها -الأبستمولوجيا- تتخذ من المعرفة العلمية موضوعاتها وتفسيراتها للواقع، وذلك بغية فحص تشكل مفاهيم العلم وتطور دلالاتها عبر مقارنة نقدية موضوعاً لها.